

(هاجس الاغتراب والقلق)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله....

أبو العلاء أحمد بن عبدالله المعري قنطرة في تاريخ لغتنا العربية لا يمكن تجاوزها بغير اهتمام، عده بعض العلماء زنديقا مثل ابن عقيل الحنبلي وتلميذه ابن الجوزي كما في "المنتظم" و "تلبيس إبليس"، والإمام ابن الوزير اليماني كما في كتابه "نصر الأعيان على شعر العميان"، ودافع عنه آخرون كالشيخ كمال الدين بن الزملكاني الشافعي كما في "نكت الهميان"، والأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه "أباطيل وأسما" والشيخ طه الراوي كما في كتيبه "أبو العلا في بغداد" والشيعي محسن الأمين العاملي كما في "أعيان الشيعة" ولعل أوسع الكتب تفسيراً لشعره على وجه يحمل الدفاع عنه هو كتاب محمد سليم الجندي "الجامع في أخبار أبي العلاء" في ثلاث مجلدات.. استغل أعداء الدين الكثير من كلام أبي العلاء في نقد الدين، وحاولوا النفخ في كثير من عباراته، وحملوها رهقا من المعاني، حتى صار شيخ المعرة هو الحائط الذي يستند إليه كلامه لنقد الإسلام والمسلمين..

في هذه "الأبنية من الورق" كما وصف هو كتابه "اللزوميات" - أعلن في المقدمة أن فيها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد. ولكن فيه الكثير من نقد واقعه السياسي والاجتماعي والتدين الجاهل، فلا يضرنا شيء إن ما شينا شيخ المعرة في نقده للناس، عليّة وسفلة... أول بيت قاله في لزومياته:

أولوا الفضل في أوطانهم غرباء *** تشذ وتتأى عنهم القرباء
كانت الغربية هاجس الشيخ، وهي هاجس أهل الفهم والعلم، فلما أن تطحنهم، وإما أن يسقون بلحائها، فنصلب أعوادهم وتتفتق أذهانهم.

هاجس الغربية لقلّة الصديق، وعي السامع، وجلد الفاجر، وعجز التقى، لازم الشيخ حتى آخر أبياته:

الدهر لا تأمنه لقوة *** ترقق أفراخا لها بالسلى
إن يرحل الناس ولم أرتحل *** فعن قضاء لم يفوض إلي
خلفت من بعد رجال مضوا *** وذاك شر لي وشر علي
كلماته هذه هي ترديد كلمات عائشة الصديقة المبرأة من فوق سبع سماوات:
ومضى الذين يعاش في أكنافهم *** وبقيت في خلف كجلد الأجر
أما الموت فهو راحة هذا القلق، وهو القاطع لهذه الغربية: "بل الرفيق الأعلى" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الشيخ فيقول:

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالمكم *** فإني بنفسي لا محالة أبدأ
متى يتقضى الوقت والله قادر *** فنسكن في هذا التراب ونهدأ
تجاوز هذا الجسم والروح برهة *** فما برحت تأذى بذاك وتصدأ
هل هناك إنصاف أكثر من هذا: لقد ذممت أفعالي قبل أن أذم أفعالكم. إنه قلق وهاجس البحث عن المعالي وشرف المكارم:

كم وعظ الواعظون منا *** وقام في الارض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باق *** ولم يزل داؤك العياء
لكن ماذا يفعل من يعيش بين:

أراهم يضحكون إلي غشا *** وتغشاني المشاقص والحظاء (1)
فلست لهم وإن حربوا أليفا *** كما لم تأتلف ذال وظاء
وهل له غير الشكوى إلى الله:

إلى الله أشكو مهجة لا تطيعني *** وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجى مثل مهجور المنازل دائر *** وجهل كمسكون الديار مشيد
أما إن أردت المعاشرة ولم ترض بالهروب فلا بد من الصبر:
من عاشر الناس لم يعدم نفاقهم *** فما يفوهون من حق بتصريح
قل لنا يا شيخ ما شرهم:

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى *** بما قال واث أو تكلم حاسد
نعم إنه إما واش يكذب عليك الشر، نمام منافق، أو حاسد يتمنى زوال الخير.. إنها طامة وأي طامة..
مع هاجس الغربة ماذا يطلب الشيخ والى ماذا يسعى؟
من أحسن الدهر وقتاً ساعة سلمت *** من الشرور وفيها صاحب حدث
لكن أنى له هذه الساعة وأين سيجد هذا الصديق؟

عرفت سجايا الدهر أما شروره *** فنقد وأما خيره فوعود
وحين نستتق الشيخ عن الزمن الذي يعيبه، والوقت الذي يشتمه يسارع مجيباً:
ألا أن أخلاق الفتى كزمانه *** فمنهن بيض في العيون وسود
زدنا يا شيخ ماذا تريد؟ وماذا يريد الناس منك؟
خذ رأيي وحسبك ذاك مني *** على ما في من عوج وأمت (2)
وماذا يبتغي الجلساء عندي *** أراؤوا منطقي وأردت صمتي
هيه! ماذا أيضاً:

فأطيب أرض الله ما قل أهله *** ولم ينأ فيه القوت عن يدك السفر
لم نرتو بعد نسمع:

وجدت الناس كالأرضين شتى *** فمن دمت يرتع أو حرار
جليس الخير كالداري ألقى *** لك الريا كمنتسم العرار (3)
ولكن ضده في الربع قين *** أطار إليك مفترق الشرار
يباكر ظالما جنفا وغراً *** كما بكر الظليم إلى العرار (4)
فماذا عن صوفية زمانك؟

صوفية شهدت للعقل نسبتهم *** بأنهم ضأن صوف نطحها يقص
تواجد القوم من نسك بزعمهم *** والله يشهد ما زادوا كما نقصوا (5)
أو غيرها؟:

صوفية ما رضوا للصوف نسبتهم *** حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا
تبارك الله! دهر حشوه كذب *** فالمرء منا بغير الحق موصوف
فهل معنى ما تقول أنك تنكر التعبد؟
ذوو النسك خير الناس في كل موطن *** وزيهم بين المعاشر خير زي
فهل لك قول في التوراة؟

يا آل يعقوب ما توراتكم نبأ *** من وري زند ولكن وري أكباد (6)
إن كان لم يبد للأعمار سركم *** فإنه لي في أكنانه بادي
لقد أكلتم بأمر كله كذب *** على تقادم أزمان وابد
ورابني أن أحبارا لكم رسخوا *** في العلم ليسوا على حال بعباد
قل لنا عن الرهبان: أتركوا الدنيا زهداً أم لماذا؟

الراهب المسجون فرط عبادة *** من حب دنياه الكذوب موله
أعرفتم أصحابكم بحقيقة *** أم كلكم عنه غبي أبله؟
ذكر التأله فادعوه تخرصا *** ما هذه أفعال من يتأله

وأخيراً ماذا عن أهل السياسة عندكم؟:
يسوسون الأنام بغير عقل *** فينقذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني *** ومن زمن رئاسته خساسه
أما الحال ففي البلاد بلاء:
يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً *** ونحن بعدهم في الأرض قطان
إن العراق وإن الشام من زمن *** صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الأنام شياطين مسلطة *** في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم *** إن بات يشرب خمراً وهو مبطان
متى يقوم إمام يستفيد لنا *** فتعرف العدل أجيال وغيطان
وحفظك الله

-
- (1) المشاقص: النصال العريضة، والحظاء: السهام الصغيرة.
 - (2) ارتفاع.
 - (3) الدراي: بانع المسك، والعرار: حب بهار رانحته طيبة.
 - (4) يقول أن ضد الخير الذي يرويك وتشم منه الطيب هو الرجل العبد الذي يرمي لك بالشر وكثرة الصياح، ويلافيك بصوت صارخ ظالماً ومانلاً عن الحق.
 - (5) النقص: الصياح والرقص.
 - (6) الزند هو بمعنى العقل ووري الكبد هو قيحها.